بداية الهداية

رقم موافقة وزارة الإعلام : ٤٨٤١٠
تاريخ : ٦ / ٦ / ٢٠٠٠

جميع حقوق الطبع والتصوير محفوظة
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م
الطبعة الأولى

يطلب من
مكتبة دار الفجر
للنشر والتوزيع
سورية - دمشق - حلبوني - جادة الشيخ تاج
ص.ب ٣٥٣٥٧ - هـ ٢٢٢٨٣١٦

بداية الهداية

للإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

عني به

حسن السماحي سويدان

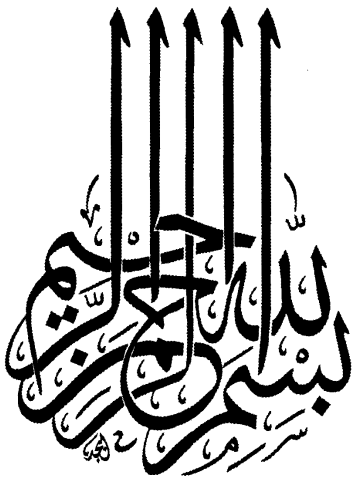
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الغرّ الميامين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فكتاب (بداية الهداية) لحجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى ـ وهو من أواخر ما ألف [1] ـ يحتوي على إرشادات مجملة إلى بداية الطريق إلى الله ، وما يجب على العبد في معاملته ربّه في أداء أوامره ، واجتناب نواهيه ، كما اشتمل على جمل من آداب مخالطة عباد الله وصحبتهم في الدنيا.

وكتابُه هذا مدخلٌ لكتابه العظيم «إحياء علوم الدين» فقد وصف الكتابين فقال: «فهذه نبذة يسيرة من **ظاهر علم التقوى** ، وهي (**بداية الهداية**) فإذا جرَّبت نفسك فيها ،

---

(١) ألفه بعد «الإحياء» ، كما هو ظاهر لمن يقرأه.

وطاوعتك عليها ، فعليك بكتاب (**إحياء علوم الدين**) ، لتعرفَ كيفية الوصول إلى **باطن التقوى**.

فإذا عمرتَ بالتقوى **باطنَ قلبك** ، فعند ذلك ترتفعُ الحُجبُ بينك وبين ربك ، وتنكشفُ لك أنوارُ المعارف ، وتتفجَّرُ من قلبِك ينابيعُ الحكمةِ . . . »[1].

وقد قسّم المؤلف رحمه الله كتابه هذا إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في **فعل الطاعات** ، مع التحقق من الشروط الشرعية الظاهرة والباطنة.

والقسم الثاني: في **اجتناب المعاصي**، وترك المعاصي هو الأشد ، ولا يقدر عليها إلاَّ الصديقون.

ثم بيَّن أن المعاصي قسمان: معاصي الجوارح، ومعاصي القلوب، ومعاصي الجوارح إنما ترشحُ من معاصي القلوب، لذلك كان اجتناب معاصي القلوب أول ما يشتغل به العبد ، فإن اجتنبها صار اجتناب معاصي الجوارح أسهل.

والقسم الثالث: يتضمّن جُملاً من الآداب ، يأخذ به المسلم نفسه في معاملته مع الله تعالى ومع خلقه.

---

(١) بداية الهداية ، ص (١٢ ، ١١٥).

وقد بيَّن المؤلف شروط الصحبة وحقوقها وآدابها ، فإذا أخذ الإنسان نفسه بهذه الإرشادات تحقق أنَّ لهذه البداية نهايةٌ ، وقد أودعها المؤلف كتابَه الجامع «إحياء علوم الدين» ، فاشتغل بتحصيله لتتحققَ من باطن التقوى .

وقد كُتب لهذا الكتابُ القبولَ ببركة إخلاص مؤلفه ، حتى إنه قُرر في المعاهد الأزهرية ، وقد رغب إليَّ الأخ أبو راتب صاحب مكتبة الفجر بدمشق أن أعدَّ له طبعة من الكتاب قريبةَ المتناوَل ، صحيحةَ النص ، وأن أقتصر في التعليقات على حدِّ الضرورة ، فرجعت إلى طبعات عديدة[1] لضبط النص ، واقتصرت في تخريج الأحاديث على ما صرَّح بها المؤلف رحمه الله تعالى ، وتركت ما كان قد ضمنه في كتابه من معاني الأحاديث لئلا يطول الكتاب[2] .

وقد وضعتُ بعض العنوانات ، وميزتها عن عنوانات

---

(١) من ذلك طبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ، وطبعة المعارف ببغداد ، وطبعة حلب للشيخ الفاضل محمد الحجار ، وطبعة الأستاذ عدنان المغربي ، وهي أجود هذه الطبعات وأحسنها تحقيقاً ـ وقد استفدت منها فوائد عدة ـ . وطبعة الأستاذ عبد الحميد درويش ، وقد أثقلها بالشروح والتعليقات .

(٢) ويمكن للقارئ الرجوع إلى تخريجها في (الإحياء) .

المؤلف رحمه الله تعالى بوضعها بين حاصرتين.

وفي الختام أحبُّ أن أنبه إلى أن كتب التصوف ـ ومنها هذا الكتاب ـ مليئة بالأحاديث الضعيفة والموضوعة ، انظر على سبيل المثال الحديث الموضوع عن معاذ رضي الله عنه ص (١٠٩) فينبغي على قارئها أن يتثبتَ من الأحاديث الواردة فيها قبل العمل، إما بالرجوع إلى مصادر السنة من المسانيد والسنن، أو بالرجوع إلى أصحاب الاختصاص وهذا أولى.

رحم الله الإمام الغزالي ، وجزاه عن الأمة خير الجزاء فقد تميَّزت كتبه بجمال الأسلوب ، ودقة التقسيم ، وحسن العرض ، فقد خاطب القلب والعقل معاً ، مقتدياً في ذلك بالقرآن الكريم.

وجزى الله تعالى خيراً الأخ أبا راتب لحرصه على تيسير نشر الكتاب النافع بحلة قشيبة ، ميسَّراً لعامة القراء.

اللهم تقبل مني ، وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم ، والحمد لله رب العالمين.

دمشق ١٧/ ١١/ ١٤٢٠ هـ **وكتبه**

٢١/ ٢/ ٢٠٠٠ م **حسن السماحي سويدان**

ترجمة حجة الإسلام
أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٢: ١٧٣ ـ ١٧٤) في ترجمة الإمام الغزالي:

ولد سنة خمسين وأربعمئة، وتفقَّه على إمام الحرمين، وبرع في علوم كثيرة، وله مصنفات منتشرة في فنون متعددة، فكان من أذكياء العالم في كل ما يتكلّم فيه، وساد في شبيبته، حتى إنه درّس بالنظامية ببغداد في سنة أربع وثمانين وأربعمئة، وله أربع وثلاثون سنة، فحضر عنده رؤوس العلماء، وكان ممن حضره عنده أبو الخطاب وابن عقيل، وهما من رؤوس الحنابلة، فتعجّبوا من فصاحته واطلاعه، قال ابن الجوزي: وكتبوا كلامه في مصنفاتهم، ثم خرج عن الدنيا بالكلية، وأقبل على العبادة وأعمال الآخرة، وكان يرتزق من النسخ، ورحل إلى الشام، فأقام بها بدمشق، وببيت المقدس مدةً، وصنّف في هذه المدة كتابه «إحياء علوم الدين»،

وهو كتاب عجيب ، يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات ، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوف وأعمال القلوب ، لكن فيه أحاديث كثيرة غرائب منكرات وموضوعات ، فالكتاب الموضوع للرقائق والترغيب والترهيب أسهل أمراً من غيره. وقد كان الغزالي يقول: أنا مزجيُّ البضاعة في الحديث ، ويقال: إنه مال في آخر عمره إلى سماع الحديث ، والتحفّظ للصحيحين.

قال ابن الجوزي: ثم ألزمه بعض الوزراء (نظام الملك) بالخروج إلى نيسابور ، فدّرس بنظاميتها ، ثم عاد إلى بلده طوس ، فأقام بها ، وابتنى رباطاً ، واتخذ داراً حسنة ، وغرس فيها بستاناً أنيقاً ، وأقبل على تلاوة القرآن ، وحفظ الأحاديث الصحاح ، وكانت وفاته يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة من سنة خمس وخمسمئة ، ودفن بطوس رحمه الله تعالى.

وقد سأله بعض أصحابه ـ وهو في السياق ـ فقال: أوصني. فقال: عليك **بالإخلاص**. ولم يزل يكررها حتى مات رحمه الله.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالم العلامة ، حجة الإسلام ، وبركة الأنام ، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزاليُّ الطوسيُّ قدّس الله روحه ، ونوّر ضريحه آمين :

الحمد لله حقّ حمده ، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد ، وعلى آله وصحبه من بعده .

أما بعد: فاعلم أيها الحريص ـ المقبِلُ على اقتباس العلم ، والمظهِرُ من نفسه صدقَ الرغبة ، وفرط التعطُّش إليه ـ أنك إن كنتَ تقصد بطلب العلم المنافسة والمباهاة ، والتقدّم على الأقران، واستمالة وجوه الناس إليك، وجمع حطام الدنيا ، فأنت ساع في هدم دينك ، وهلاك نفسك ، وبيع آخرتك بدنياك ، فصفقتك خاسرة ، وتجارتك بائرة[1] ، ومعلِّمك معين لك على عصيانك ، وشريك لك في خسرانك ، وهو كبائع سيف من قاطع طريق ، كما

(١) خاسرة.

قال ﷺ: «مَنْ أعانَ على معصيةٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كلمةٍ، كانَ شَرِيكاً له فِيْهَا»[1].

وإن كانت نيتك وقصدك بينك وبين الله تعالى من طلب العلم الهدايةَ، دون الرواية؛ فأبشر، فإنّ الملائكة تبسط لك أجنحتها إذا مشيتَ، وحيتان البحر تستغفر لك إذا سعيتَ.

ولكن ينبغي لك أن تعلمَ قبل كلّ شيء أنَّ الهداية ـ التي هي ثمرة العلم ـ لها بداية ونهاية، وظاهر وباطن، ولا وصول إلى نهايتها إلا بعد إحكام بدايتها، ولا عثور على باطنها إلا بعد الوقوف على ظاهرها.

وها أنا مشير عليك ببداية الهداية، لتجرّب بها نفسك، وتمتحنَ بها قلبك.

فإن صادفتَ قلبك إليها مائلاً، ونفسَك بها مطاوعةً، ولها قابلة، فدونك التطّلع إلى النهايات، والتغلغل في بحار العلوم.

وإن صادفت قلبك عند مواجهتك إياها بها مسوّفاً، وبالعمل بمقتضاها مماطلاً، فاعلم أنّ نفسك المائلة إلى طلب العلم هي النفس الأمّارة بالسوء، وقد انتهضت

---

(١) لا أصل له.

مطيعةً للشيطان اللعين ليدليك[1] بحبل غروره، فيستدرجك بمكيدته إلى غَمرة الهلاك، وقصدُه أن يروّج عليك الشرّ في معرض الخير، حتى يلحقَك ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

وعند ذلك يتلو عليك الشيطانُ فضل العلم، ودرجة العلماء، وما ورد فيه من الآثار والأخبار، ويلهيك عن قوله ﷺ: «مَنْ ازدادَ علماً ولمْ يزددْ هدًى لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إلا بُعْداً»[2]، وعن قوله ﷺ: «أشدُّ النَّاسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لم يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ»[3]. وكان ﷺ يقول: «اللهمَّ إنِّي أَعُوْذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا ينفعُ، وَقَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وعَمَلٍ لا يُرْفَعُ، وَدُعَاءٍ لا يُسْمَعُ»[4] وعن قوله ﷺ: «مَرَرْتُ ليلةَ أُسرِيَ بي بأقوامٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيْضَ مِنْ

---

(١) يدفعك.

(٢) قال العراقي (١: ٥٩) حديث ضعيف.

(٣) قال العراقي (١: ٢٩): حديث ضعيف، وقد أشار إلى هذا المعنى ابن رسلان في (زبده) فقال:

فعالمٌ بعلمه لم يعملنْ معذَّب من قبل عباد الوثن

(٤) قال العراقي: (١: ٣٢٢): صحيح الإسناد.

نارٍ ، فقلتُ: مَنْ أنتم؟ قالوا: كُنَّا نأمرُ بِالخَيْرِ ولا نأتيهِ ، وَنَنْهَىٰ عَنِ الشَّرِّ وَنَأْتِيْهِ»[1].

فإيّاك يا مسكينُ! أن تذعِنَ لتزويره ، فيدليك بحبل غرورِه ، **فويلٌ للجاهلِ حيث لم يتعلّم مرّةً واحدةً ، وويلٌ للعالمِ حيث لم يعملْ بما علمَ ألف مرّة.**

واعلم أنَّ النَّاس في طلب العلم على ثلاثة أحوال:

١ ـ رجل طلب العلم ليتخذَه زاده إلى المعاد ، ولم يقصدْ به إلا وجهَ اللهِ والدار الآخرة ، فهذا من الفائزين.

٢ ـ ورجل طلبه ليستعينَ به على حياته العاجلة ، وينالَ به العزّ والجاه والمال ، وهو عالم بذلك ، مستشعرٌ في قلبه ركاكةَ حاله، وخِسّةَ مقصده، فهذا من المخاطرين.

فإنْ عاجلَه أجله قبل التوبة خِيْفَ عليه من سوءِ الخاتمة ، وبقي أمرُه في خطر المشيئة.

وإن وُفِّق للتوبة قبل حلول الأجلِ ، وأضاف إلى العلم العملَ ، وتدارك ما فرّطَ فيه من الخلل ، التحقَ بالفائزين ، **فإنّ التائبَ من الذَّنبِ كمن لا ذنبَ له.**

---

(١) قال العراقي (١ : ٦٣): أخرجه ابن حبان.

٣ ـ **ورجل ثالث** استحوذ عليه الشيطان ، **فاتخذ علمه ذريعةً إلى التكاثر بالمال ، والتفاخُرِ بالجاه** ، والتعزُّزِ بكثرة الأتباع ، يدخلُ بعلمه كلَّ مدخل ، رجاء أن يقضيَ من الدنيا وطرَه ، وهو مع ذلك يضمِر في نفسه أنه عند الله بمكانٍ ، لاتّسامِه بسمةِ العلماء ، وترسُّمه برسومهم في الزيِّ والمنطق ، مع تكالبه على الدنيا ظاهراً وباطناً ، فهذا من الهالكين ، ومن الحمقى المغرورين ، إذ الرجاء منقطِعُ عن توبته ، لظنّه أنه من المحسنين ، وهو غافل عن قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف ٢] ، وهو ممّن قال فيهم رسول الله ﷺ : «أَنَا مِنْ غَيْرِ الدّجالِ أخوفُ عليكم مِنَ الدّجالِ» . فقيل : ما هو يا رسول الله؟ فقال : «علماءُ السوءِ»[١] .

وهذا لأنّ الدجال غايتُه الإضلال ، ومثل هذا العالم ، وإنْ صرفَ الناس عن الدنيا بلسانه ومقاله ، فهو داع لهم إليها بأعماله وأحواله ، **ولسانُ الحال أفصحُ من لسان المقال** ، وطباعُ الناس إلى المساهمة في الأعمال أميلُ منها إلى المتابعة في الأقوال ، فما أفسدَه هذا المغرورُ

---

(١) أخرجه أحمد (٥ : ١٤٥) من حديث أبي ذر ، وفي إسناده ابن لهيعة .

بأعماله أكثر مما أصلحه بأقواله ، إذ لا يستجرىءُ الجاهلُ على الرغبة في الدنيا إلا باستجراءِ العلماء ، فقد صار علمُه سبباً لجراءة عباد الله على معاصيه ، ونفسُه الجاهلةُ مدلّة مع ذلك ، تمنّيه وترجّيه ، وتدعوه إلى أن يمنَّ على الله بعلمه ، وتخيِّلُ إليه نفسُه أنه خير من كثير من عِبادِ الله .

فكن أيها الطالب ! من الفريق الأول ، واحذر أن تكون من الفريق الثاني ، فكم من مسوِّفٍ عاجله الأجلُ قبل التوبة فخسر ، وإيّاك أن تكونَ من الفريق الثالث ، فتهلك هلاكاً لا يُرجى معه فلاحُك ، ولا يُنتَظَرُ صلاحُك .

فإن قلتَ : فما (**بداية الهداية**) لأجرِّبَ بها نفسي؟

فاعلم : **أنّ بدايتها ظاهر التقوى ، ونهايتها باطن التقوى ، فلا عاقبة إلا بالتقوى ، ولا هداية إلا للمتقين .**

والتقوى : عبارة عن امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه ، فهما قسمان : وها أنا أشيرُ عليك بجملةٍ مختصرة من ظاهر علم التقوى في القسمين جميعاً .

القسم الأول

في الطاعات

اعلم أن أوامَر الله تعالى فرائضٌ ونوافلُ.

فالفرض: رأس المال، وهو أصل التجارة، وبه تحصل النجاة.

والنفل: هو الربح، وبه الفوز في الدرجات، قال ﷺ: «يقولُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ: ما تقرَّبَ إِليَّ المتقرّبونَ بمثلِ أداءِ ما افترضتُ عليهم، ولا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إِليَّ بالنوافلِ حتى أحبَه، فإِذا أحببتُه كنتُ سمعَهُ الذي يسمَعُ بهِ، وبصرَهُ الذي يُبْصِرُ بهِ، ولسانَهُ الذي ينطِقُ بهِ، ويدَهُ التي يبطُشُ بها، ورجلَهُ التي يَمْشِي بِهَا»[1].

ولن تصلَ ـ أيها الطالب ـ إلى القيام بأوامر الله تعالى، إِلا بمراقبةِ قلبك وجوارِحك في لحظاتِك وأنفاسِك، من حين تصبِحُ إِلى حين تُمْسِي.

فاعلم أنّ الله تعالى مطّلِعٌ على ضميرك، ومشرِفٌ على ظاهِرك وباطنِك، ومحيط بجميع لحظاتك وخطراتك وخطواتك، وسائرِ سكناتك وحركاتك، وأنك في مخالطتِك وخلواتِك متردّدٌ بين يديه، فلا يسكنُ في الملك

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والملكوت ساكن؛ ولا يتحرَّك متحرِّك. إلا وجبَّارُ السموات والأرض مطّلعٌ عليه ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [المؤمنون: ١٩] ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

فتأدّب أيها المسكين ! ظاهراً وباطناً بين يدي الله تعالى تأدُّبَ العبد الذليل المذنب في حضرةِ الملك الجبّار القهّار ، واجتهدْ أن **لا يراك مولاك حيثُ نهاك ، ولا يفقدُك حيثُ أمرَك**[1].

ولن تقدرَ على ذلك إلا بأن توزِّع أوقاتك ، وترتّبَ أورادَك من صباحك إلى مسائك ، فاصغ إلى ما يلُقى إليك من أوامر الله تعالى عليك من حين تستيقظ من منامك إلى وقت رجوعك إلى مضجعك.

* * *

(١) هذا أحد معاني التقوى.